

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ
بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ
فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ
إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ
قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّكَلَّفُوا اللَّهَ كَمَ مِنْ فَتَةٍ
قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فَتَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ
الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَرُوا الْوَعْدَ أُجِيزُوا وَجُودُهُمْ قَالُوا
رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أقدامنا وَأَنْصَرْنَا
عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ
وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ
وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ
بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو
فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوها
عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَأَنْتَ لِمَنِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

﴿٢٤٩﴾ فلما خرج بهم طالوت قال لهم: إن الله مختبركم بنهر
تمرؤون عليه في طريقكم فلا تشربوا منه إلا غرفة،
فمن شرب منه أكثر من ذلك فليس من جيشنا ولا
من جمعنا لخروجه عن طاعة الله، ولن يصحبني إلا
من لم يشرب منه أكثر من غرفة، فلم يصبروا على
هذا الاختبار وشربوا منه كثيرا إلا جماعة قليلة،
فاصطحب هذه القلة الصابرة واجتاز بها النهر، فلما
ظهرت لهم كثرة عدد عدوهم قالوا: لن نستطيع اليوم
قتال جالوت وجنوده لكثرتهم وقتلتنا. فقال نفر منهم:
ثبتت الله قلوبهم لرجائهم في ثواب الله عند لقائه. لا
تخافوا فكثيرا ما انتصرت القلة المؤمنة على الكثرة
الكافرة، فاصبروا فإن نصر الله يكون للصابرين.
﴿٢٥٠﴾ ولما تقدم المؤمنون لقتال جالوت وجيشه، اتجهوا
إلى الله ضارعين داعين له أن يملأهم بالصبر، ويقوي
عزائمهم ويثبتهم في ميدان القتال، وأن ينصرهم على
أعدائهم الكافرين.

﴿٢٥١﴾ فهزموا عدوهم بإذن الله تعالى وقتل داود- وهو أحد جنود طالوت- جالوت قائد الكفار، وأعطاه الله الحكم بعد طالوت
والنبوة والعمارة والتأفة وعلمه مما يشاء، وسنة الله أن ينصر الذين يصلحون في الأرض ولا يفسدون، ولولا أن الله يسلط
جنوده على المفسدين لمحو فسادهم، ويسلط الأشرار بعضهم على بعض، ما عمرت الأرض، ولكن الله دائم الإحسان
والفضل على عباده.

﴿٢٥٢﴾ تلك القصة من العبر التي نقصها عليك بالصدق، لتكون أسوة لك ودليلاً على صدق رسالتك، ولتعلم أننا سننصرك كما
نصرنا من قبلك من الرسل.

إثبات ملك طالوت واختباره الأتباع وانهمزام الفئة الكثيرة أمام الفئة القليلة

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يَّاذُنِ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم يَّاذُنِ اللَّهُ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٢٥٢﴾.

المعنى العام

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ٢٤٨﴾.

يقول الحق ﷻ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ لما طلبوا منه الحجة على اصطفاء طالوت للملك ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ إِنَّ علامة ملك طالوت عليكم، أن يرده الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم، وهو صندوق من خشب الشمشار^(١) مموه بالذهب، طوله ثلاثة أذرع في سعة ذراعين ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فيه وقار وجلالة، تسكن إليه قلوبكم وتثبت عند الحرب. وكانوا يقدمونه أمامهم في الحروب فلا يفترّون، ويُنصرون على عدوّهم، وقيل: كان فيه صور الأنبياء من آدم ﷺ إلى محمد ﷺ. وقيل: كان فيه طست من ذهب غُسلت به قلوب الأنبياء ﷺ وهي السكينة، وفيه ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ وهي رضاء الألواح^(٢)، وعصا موسى، وثيابه، وعمامة هارون. ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال ابن عباس ﷺ: "جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض، حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون، وقال السدي: أصبح التابوت في دار طالوت، فأمنوا بنبوة شمعون وأطاعوا طالوت".^(٣) قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ﴾ على صدقي فيما جئتم به من التوبة، وفيما أمرتم به من طاعة طالوت ﴿إِنْ كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ بالله واليوم الآخر.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يَّاذُنِ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ٢٤٩﴾

ولما اتفقوا على ملك طالوت تجهز للخروج، وقال: لا يخرج معه إلا الشاب النشيط الفارغ ليس وراءه علقه،

(١) خشب الشمشار: نوع من أنواع الخشب القوي المتين يستخدم في التصميمات الفاخرة.

(٢) رضاء الألواح: الألواح المهمشة.

(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره، عن ابن عباس، باب: سورة البقرة، الآية: ٢٤٩، ج ١، ص ٥٠٨.

فاجتمع ممن اختار ثمانون ألفاً، وقيل: ثلاثون، ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ فلما انفصل عن بلده بالجنود وساروا في البداء- وكان وقت الحر والقيظ- عطشوا، وسألوا طالوت أن يجري لهم نهراً، فقال لهم بوحى، أو بإلهام، أو بأمر نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ أي مختبركم بنهر بسبب اقتراحكم، ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ﴾ كرعاً بلا واسطة، ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي ليس من جيشي، ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي يذقه، ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ فإنها تكفيه لنفسه ولفرسه. ﴿فَشَرَبُوا مِنْهُ﴾ أي كرعوا، وسقطوا على وجوههم، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ نحو ثلاثمائة وأربعة عشر، على عدد أهل بدر، عَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَتَحَدَّثُ: «أَنَّ عِدَّةَ أَصْحَابِ بَدْرٍ عَلَى عِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ جَاوَزُوا مَعَهُ النَّهْرَ، وَلَمْ يُجَاوِزْ مَعَهُ إِلَّا مُؤَمِّنٌ بِضْعَةَ عَشَرَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ»^(١). روي أَنَّ من اقتصر على الغرفة كفته لشربه ودوابه، ومن لم يقتصر غلب عطشه، واسودت شفته ولم يقدر أن يمضي. وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "شربوا على قدر يقينهم، فشرب الكفار شرب الهيم، وشرب العاصون دون ذلك، وانصرف من القوم ستة وسبعون ألفاً وبقي بعض المؤمنين لم يشربوا شيئاً وأخذ بعضهم الغرفة، فأما من شرب فلم يرو، بل برح به العطش، وأما من ترك الماء فحسنت حاله وكان أجلد ممن أخذ الغرفة"^(٢).

وحكمة هذا الامتحان: ليتخلص للجهاد المطيعون المخلصون، إذ لا يقع التصر إلا بهم، ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ فلما جاوز النهر طالوت ومن بقي معه ممن لم يشرب، قال بعضهم لبعض: ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم وقلة عددهم، فشجعهم علماءهم العاملون بأن وعد الله حق، فإن التصر من عند الله ليس عن كثرة عدد ولا عدد، ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ﴾ وقال الذين يتيقنون بقاء الله، ويتوقعون ثواب الشهادة، وهم الخللص من أهل البصيرة: لا تفرغوا من كثرة عددهم ﴿كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وإرادته ومعونته، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالتصر والمعونة.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّثْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(٣) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٤) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٥).

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي ظهر طالوت بمن معه لجالوت في البراز، ودنا بعضهم من بعض، تضرعوا إلى الله واستنصروه ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي أصببه علينا صباً ﴿وَتَثَبِّثْ أَقْدَامَنَا﴾ عند اللقاء لئلا نفر، ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾. وفي دعائهم ترتيب بليغ سألوا أولاً إفراغ الصبر في قلوبهم الذي هو ملاك الأمر، ثم ثبات القدم في مداحض الحرب المسبب عنه، ثم النصر على العدو المرتب عليها غالباً. فهزم الله عدوهم ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وأجاب دعاءهم فغلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم وقدرته، ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ قال الملك إلى داود عَلَيْهِ السَّلَام، مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة. وكان جالوت أمير العمالة وملكهم، وكان فيما روي في ثلاثمائة ألف فارس.

(١) رواه البخاري في صحيحه، عن البراء، حديث رقم: ٣٩٥٨، كتاب: المغازي، باب: عِدَّةُ أَصْحَابِ بَدْر.

(٢) ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره، عن ابن عباس، ج ١١، ص ١٥٧.

وروي في قصة داود وقتله جالوت، " أن أصحاب طالوت كان فيهم إخوة داود وهم بنو إيشي، وكان داود صغيراً يرى غنماً لأبيه، فلما حضرت الحرب قال في نفسه: لأذهبن لرؤية هذه الحرب، فلما نهض مَرَّ في طريقه بمجر فناداه: يا داود، خذني فبي تقتل جالوت، ثم ناداه حجر آخر، ثم آخر، ثم آخر فأخذها وجعلها في مَخَلَّاتِه وسار، فلما حضر الناس، خرج جالوت يطلب مبارزاً فكَعَّ الناس عنه، حتَّى قال طالوت: من يبرز له ويقتله فأنا أزوجه بنتي وأحكمه في مالي، فجاء داود، فقال: أنا أبرز له وأقتله، فقال له طالوت: فاركب فرسي، وخذ سلاحي، ففعل، وخرج في أحسن شكة فمّا مشى قليلاً رجع. فقال الناس: جبن الفتى، فقال داود: إنَّ الله إن لم يقتله لي ويُعَيِّي عليه لم ينفعني هذا الفرس ولا هذا السَّلاح، ولكيِّي أحبُّ أن أقاتله على عادتي.

قال: وكان داود من أرمى الناس بالمقلاع، فنزل وأخذ مَخَلَّاتِه فتقلَّدها وأخذ مقلاعه، وخرج إلى جالوت وهو شاك في سلاحه، فقال له جالوت: أنت يا فتى تخرج إلي، قال: نعم. قال: هكذا كما يخرج إلى الكلب. قال: نعم وأنت أهون. قال: لأطعمنَّ اليوم لحمك الطَّير والسَّباع، ثمَّ تدانينا فأدار داود مقلاعه، وأدخل يده إلى الحجارة، فروي أنَّها التَّامت فصارت حجراً واحداً فأخذه فوضعه في المقلاع وسَمَّى الله وأداره ورماه فأصاب به رأس جالوت فقتله، وحزَّ رأسه وجعله في مَخَلَّاتِه واختلط الناس وحمل أصحاب طالوت وكانت الهزيمة.

ثمَّ إنَّ داود جاء يطلب شرطه من طالوت، فقال له: إنَّ بنات الملوك لهنَّ غرائب من المهر، ولا بدَّ لك من قتل مائتين من هؤلاء الجراجمة^(١) الذين يؤذون الناس، وتحيئني بغلغهم... فقتل داود منهم مائتين، وجاء بذلك وطلب امرأته فدفعها إليه طالوت، وعظم أمر داود، فيروي أنَّ طالوت تخلَّى له عن الملك وصار هو الملك^(٢).

قال تعالى: ﴿وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ الذي كان بيد طالوت، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ وهي التَّبوَّة، وقيل: صنعة الدَّروع ومنطق الطَّير، ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ من أنواع العلوم والمعارف والأسرار، وقد دفع الله بأس الكافرين وردَّ كيدهم في نحرهم، ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ أي فلولا أنَّ الله يدفع بعض الناس ببعض، فينصر المسلمين على الكافرين، ويكفَّ فسادهم، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود، لغلَّبوا وأفسدوا في الأرض. أو: لولا أنَّ الله نصَّب السُّلطان، وأقام الحُكَّام لينصفوا المظلوم من الظَّالم، ويردُّوا القويَّ عن الضَّعيف، لتواثب الخلق بعضهم على بعض، وأكل القويَّ الضَّعيف فيفسد النظام. أو: لولا أنَّ الله يدفع بالشَّهود عن النَّاس في حفظ الأموال والتَّفوس والدماء والأعراض، لوقع الفساد في الأرض. أو: لولا أنَّ الله يدفع بأهل الطَّاعة والإحسان عن أهل الغفلة والعصيان، لفسدت الأرض بشوْم أهل العصيان. فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبي ﷺ قَالَ: «لَوْلَا شَبَابُ خُشْعٍ، وَشُيُوعُ رُكْعٍ، وَأَطْفَالُ رُصْعٍ، وَبَهَائِمُ رُتْعٍ، لَصَبَّ عَلَيْكُمُ الْعَذَابُ صَبًّا»^(٣) وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُكَدِّرِ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لِيُصْلِحَ بِصَلَحِ الْعَبْدِ وَلَدَهُ وَوَلَدَ وَلَدِهِ وَأَهْلَ دُورَتِهِ وَأَهْلَ الدُّوَرَاتِ حَوْلَهُ، فَمَا يَزَالُونَ فِي حِفْظٍ مِنَ اللَّهِ مَا دَامَ يَنْبَهُمْ»^(٤). فهذا من فضل الله على عباده يصلح طالحهم بصالحهم، ويشفع خيارهم في شرارهم، ولولا ذلك لعوجلوا بالهلاك، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

(١) الجراجمة: أحفادهم جماعة مسيحية فارسية أو أرمنية كانت تقطن في النخور بين البيزنطيين والدولة الأموية.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، باب: سورة البقرة، الآية: ٢٥٠-٢٥١، ج ١، ص ٣٣٧.

(٣) رواه أبو يعلى في مسنده، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٦٤٠٢، مسند: أبي هريرة، باب: شهر بن حوشب، عن أبي هريرة.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، عن محمد بن المنكدر، حديث رقم: ٣٦٥٦٤، مج: ١٩، ج ١٩، ص ٤٢٤.

﴿تِلْكَ﴾ يا محمد، ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾ إشارة إلى ما قصّ من حديث الألوف، وتمليك طالوت، وإتيان التابوت، وانهمزام الجبابرة أصحاب جالوت، ﴿نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ نقضها عليك بالوجه المطابق الذي لا يشك فيه أهل الكتاب وأرباب التواريخ، ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ حيث أخبرت بها من غير تعزّف ولا استماع، ولم يُعهد منك تعلّم ولا اطلاع، فلا يشكّ أنّه من عند الخبير العليم، إلا من طبع الله على قلبه.

لطائف الإشارات للسلوك والتزكية في الآيات

ما يستخلص من الآيات

في العقيدة

من هدي الآيات:

١. الجهاد الشرعي يشترط له الإمام المبايع بيعة شرعية ولا يكون بشكل إفرادي، لأنّ ذلك قد يكون ضرره أكثر من نفعه. يشترط للولاية الكفاءة، وأهم خصائصها: العلم وسلامة العقل والبدن.
٢. جواز التبرّك بآثار الأنبياء، كعمامة التّبيّ أو ثوبه أو نعله مثلاً.
٣. المطلوب اختبار أفراد الجيش لمعرفة مدى استعدادهم للقتال، والصبر عليه ومدى صلاحهم وتقواهم، فإنّ الله ينصرنا بالتقوى.
٤. فضيلة الإيمان بقاء الله والثقة به وحسن التوكّل عليه، وفضيلة الصبر على طاعة الله، خاصّة في الجهاد في سبيل الله وعند كلّ بلاء.
٥. بيان الحكمة في مشروعيّة الجهاد، وهي دفع أهل الكفر والظلم بأهل الإيمان والعدل، لتنظم الحياة ويعمر الكون.
٦. ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾^(١) أي: في الدنيا، بأن يسلّطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية، وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس، فإنّ العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾^(٢) لو تظاهر الخلق وتوافقوا بأجمعهم لهلك المستضعفون لغلبة الأقوياء، ولكن شغل بعضهم ببعض ليدفع بتشاكلهم شرهم عن قوم. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسِ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٣)
٧. إنّ الله تعالى جعل سكينه بني إسرائيل في التابوت الذين رضوا عن الألواح، وعصا موسى ﷺ، وآثار صاحب نبوتهم. وجعل سكينه هذه الأمة في قلوبهم، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أُنْزِلَ فِي الْقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾^(٤) ثم إنّ التابوت كانت تتداوله أيدي الأعداء وغيرهم؛ فمرة كان يُدفن ومرة كان يُغلب عليه فيحمل، ومرة يُردّ ومرة ومرة... وأما قلوب المؤمنين فحال بين أربابها وبينها، ولم يستودعها ملكاً ولا نبياً، ولا سماء ولا هواء، ولا مكاناً ولا شخصاً، قال ﷺ: ﴿إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ﴾^(٥) يعني في قبضة الحق سبحانه، وتحت تغليبهِ وتصريفهِ، والمراد منه "القدرة"، وشَتَّانَ بين أمة سكينتهم فيما للأعداء عليه تسلّط، وأمة سكينتهم فيما ليس لمخلوق عليه سلطان.

(١) سورة النساء، الآية: ١٤١. (٢) سورة غافر، الآيات: ٥١ - ٥٢. (٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥١. (٤) سورة الفتح، الآية: ٤.

(٥) رواه مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، حديث رقم: ٢٦٥٤، كتاب: القدر، باب: تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء.

٨. ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾^(١). الإشارة من هذه الآية أنَّ الله سبحانه ابتلى الخلق بصحبة الخلق وبالذنيا وبالنفس، ومن كانت صحبته مع هذه الأشياء على حدِّ الاضطرار بمقدار القوام، وما لا بدَّ منه نجا وسلم.

وكان رسول الله ﷺ قد صالح أهل البحرين، وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمالٍ من البحرين، فسمعت الأنصار بقُدومِهِ، فوافته صلاة الصبح مع رسول الله ﷺ، فلما انصرف تعرَّضُوا لَهُ، فتبسَّم رسول الله ﷺ حين رآهم، وقال: «أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِشَيْءٍ؟» قالوا: أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قال: «فَأَبْشِرُوا وَأَمْلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسِطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيكُمْ كَمَا أَلْهَيْتُهُمْ»^(٢).

٩. ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾^(٣). كذلك الخواص في كل وقت يقل عددهم ولكن يحل قدرهم.

١٠. كان أهم أمورهم الصبر والوقوف للعدو، ثم بعده النصرة عليهم فإن الصبر حق الحق، والنصرة نصيبهم، فقدّموا تحقيق حقه ﷺ وتوفيقه لهم، ثم وجود حظهم من النصرة، ثم أشاروا إلى أنهم يطلبون النصرة عليهم- لا للانتقام منهم لأجل ما فاتهم من نصيبهم- ولكن لكونهم كافرين، أعداء الله. فقاموا بكل وجه لله بالله؛ فلذلك نُصِرُوا وَوَجِدُوا الظفر. ١١. هيب الله الأعداء بطالوت لما زاده من البسطة في الجسم، ولكن عند القتال جعل الظفر على يدي داود. وكان كما في القصة ربع القامة غير عظيم الجثة، مختصر الشخص، ولم يكن معه من السلاح إلا المقلاع، ولكن الظفر كان له لأن نصرة الله سبحانه كانت معه.

١٢. وهذا الأثر قد تناقلته كتب التاريخ والأخبار في رسائل مختلفة، وألفاظ متقاربة عن عمر رضي الله عنه إلى ولاته، وقادة جيوشه، أن عمر كتب في رسالة طويلة إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ومن معه من الأجناد رضي الله عنهم: "أما بعد فإني أمرتكم ومن معك بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيده في الحزب. وأمرتكم ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصي من احتراسكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون على عدوهم بمعصية عدوهم الله، ولولا ذاك لم يكن لنا بهم قوة لأن عدونا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوتينا في المعصية كان لهم الفضل علينا والقوة، وإن لم نُنصر عليهم بفضلنا لا نغلبهم بقوتنا"^(٤).

حال بني إسرائيل منذ وفاة موسى عليه السلام حتى قيام ملك داود عليه السلام :

جمع طالوت صفوف بني إسرائيل، وهبّاهم لمحاربة عدوهم، وخرج بهم، ثم اصطفى منهم خلاصة للقتال، يقارب عددها عدد المسلمين في غزوة بدر. قالوا: وكان عددهم نحواً من (٣١٣) مقاتل، وذلك بطريقة قصّها القرآن الكريم علينا، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾^(٥).

وهؤلاء القلة هم الذين اصطفاهم طالوت للقتال بعد رحلة برية شاقة سار بهم فيها، وقد اشتدّ فيهم ظمأ القوم، وبهذه القلة جاوز طالوت التهر...

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، عن عمرو بن عوف، حديث رقم: ٦٤٢٥، كتاب: الرقاق، باب: ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

(٤) ذكره ابن الأزرقي الأصبحي في بدائع السلك في طبائع الملك، ج ٢، ٦٢.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

وأقبل داود على جالوت وجرت بينهما مكالمة عن بعد، وأظهر جالوت احتقار الفتى وازدراءه، والعفة عن مبارزته لصغر سنّه، لكنّ داود أخذ مقلّاعه - وكان ماهرًا به - وزوّده بحجر من أحجاره، ورمى به فثبت الحجر في جبهة جالوت الجبار فطرّحه أرضًا، ثمّ أقبل إليه وأخذ سيفه وفصل به رأسه، وتمتّ الهزيمة لجنود جالوت بإذن الله! قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ﴾^(١). ووفى طالوت لداود بالوعد، فزوّجه ابنته (ميكال) وأغناه.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٢).

يخبر الله تعالى عباده عمّا هو الحق ويعرّفهم بآياته الأمر الحق، فيجب على العباد أن يعتقدوا أنّ جميع ما شرعه الله تعالى من الأوامر والمناهي، ومن الحلال والحرام، كلّ ذلك حقّ وعدل فيه سعادة الدنيا والآخرة، لم يظلم عباده فيما شرعه لهم، وأمرهم به أو نهاهم عنه، ولم يظلمهم فيما حرّم عليهم أو أحلّ لهم، ولا يريد أن يظلمهم في ذلك ولا في غير ذلك، فأحكامه القضائيّة القدريّة كلّها حق لا ظلم ولا حيف، وأحكامه التشريعيّة كلّها حق لا ظلم فيها ولا حيف، ولكن الله يعلم وأنتم لا تعلمون.

في الأمر والنهي

العمل بالآيات:

- اقرأ قصة طالوت، وقارن ما حدث في ذلك الزمان وما يحدث الآن، ثمّ استخرج منها ثلاث فوائد، ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾.
- أكثر من الدعاء بالثبات، ثمّ درّب نفسك اليوم بترك محبوب مباح من العادات؛ حتى لا تنهزم عند الابتلاء، ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

في الأخلاق والآداب

التوجيهات:

- إنّ طول التفكير في الآخرة يورث الثبات واليقين بالله وبنصره، ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهَ كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

من الأخلاق المحمّديّة: الشجاعة والتخوة والمروءة

هذا الخلق مُسْتَمَدٌّ من أسماء الله تعالى "القويّ التاصر المعين".

والتعلّق باسم الله "القويّ" يكون باستمداد قوّته بتحقيق ضعفك، والتذكّر أنّ الأجل مكتوب والرزق مكتوب، وأنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. والتخلّق باسم الله "القويّ" هو أن تكون قويًّا شجاعًا، تُغيثُ الملهوف، وتساعد المحتاج، وتصدّع بالحق، وتبادر بالإصلاح، ولا تخشى في الله لومة لائم. والتخلّق باسمي الله تعالى

"التَّائِصِرُ الْمُعِينُ" هو بَأَنْ تَنْصَرَّ مَنْ اسْتَنْصَرَكَ، وَتُعِينَ مَنْ اسْتَعَانَ بِكَ، وَتَجِيرَ مَنْ اسْتَجَارَ بِكَ، فَتَكُونَ شَجَاعًا كَرِيمًا ذَا نَخْوَةٍ وَمُرُوَّةٍ.

فإذا كنت في مأزق أو عندك مشكلة أو وقعت مُصِيبَةً في حياتك... من تراه قادمًا على الفور؟ من يقف إلى جانبك في تلك المواقف؟ من يبادر ويترك ما بيده ليسارع إلى إنقاذك؟ فقط من كان عنده نخوة! المروءة هي ما تبدله لفعل الخير، وكف الأذى.

والتَّخَوُّةُ هي أَنْ تَبَادِرَ فِي تَقْدِيمِ الْمُسَاعَدَةِ دُونَ طَلِبِهَا فَتَحْتَمِلَ الْمَخَاطِرَ عَنِ الْآخَرِينَ، وَتَدَافِعَ عَنْهُمْ، وَتُبْعِدَ عَنْهُمْ شَبَحَ الْمَخَافِ.

وَالشَّجَاعَةُ هي أَنْ تَنْصَرِفَ بِشَكْلِ صَحِيحٍ تَجَاهَ أَيِّ مَوْقِفٍ يُوَاجِهُكَ دُونَ خَوْفٍ أَوْ تَرَدُّدٍ، فَتَصْنَعَ مِنَ الْيَأْسِ أَمَلًا، لَأَنَّ الْيَأْسَ فِيهِ طَعْمُ الْمَوْتِ وَلِلشَّجَاعَةِ فِيهَا مَذَاقُ الْحَيَاةِ. عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ، وَأَشَجَعَ النَّاسِ..."^(١).

فَالرُّجُولَةُ هي كَلِمَةٌ حَقٌّ وَمَوْقِفٌ حَقٌّ فِي نُصْرَةِ الْمَظْلُومِ عَلَى الظَّالِمِ، وَابْتِغَاءُ وَجْهِ اللَّهِ فِي كُلِّ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ. هِيَ الْأَخْلَاقُ الْكَرِيمَةُ وَالْمُعَامَلَةُ الْحَسَنَةُ؛ هِيَ الشَّهَامَةُ عِنْدَ حَاجَتِهَا وَالشَّجَاعَةُ فِي وَقْتِهَا، وَأَنْ تَكُونَ مُسْتَعِدًّا لِلتَّضْحِيَةِ فِي سَبِيلِ مَا تُؤْمِنُ بِهِ. وَالرُّجُولَةُ لَيْسَتْ لِلذَّكَورِ فَقَطْ، فَالرُّجُولَةُ مَوْقِفٌ، وَالكَثِيرُ مِنَ النِّسَاءِ يَتَحَمَّلْنَ مَا يَتَحَمَّلُهُ الرِّجَالُ وَلَكِنْ عَلَيْهِنَّ أَلَّا يَتَشَبَّهْنَ بِمُظْهِرِهِنَّ بِالذَّكَورِ، وَإِلَّا ضَاعَتْ أَنْوَتُهُنَّ وَرَقَّتْهُنَّ.

فَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْعَظِيمَةِ لِلدِّفَاعِ عَنِ الْمَظْلُومِ أَوْ الْمَكْرُوبِ أَوْ الضَّعِيفِ؟ لَيْسَتْ الرُّجُولَةُ فِي الْكَلَامِ الْمُنَمَّقِ، وَلَيْسَتْ فِي الْعَضَلَاتِ الْمَفْتُولَةِ. إِنَّمَا الرُّجُولَةُ تَتِمُّلُ فِي قُدْرَةِ الرَّجُلِ عَلَى احْتِوَاءِ الْمَرَأَةِ فِي لَحْظَةٍ ضَعْفِهَا، فَيَكُونُ لَهَا ذَاكَ الْجَبَلِ الشَّامَخِ الَّذِي يَبْقَى صَامِدًا إِذَا مَا هِيَ انْكَسَرَتْ وَانْهَالَتْ دُمُوعُهَا، وَيَكُونُ السِّنْدَ وَالْمَعِينَ لِيَدْعِمَهَا فِي ضَعْفِهَا، وَيَنْصَحَهَا فِي خَطِيئَتِهَا، وَيَكُونُ فَخْرًا بِإِنْجَازَاتِهَا أَمَامَ الْجَمِيعِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا»^(٢). تَقَرَّبْ إِلَى اللَّهِ بِالْإِحْسَانِ لَهِنَّ فَلَا يَكْرَهُنَّ إِلَّا كَرِيمٌ وَلَا يَهِينُهُنَّ إِلَّا لَئِيمٌ.

إِذَا انْتَشَرَتِ الشَّهَامَةُ وَالْمُرُوَّةُ وَالرُّجُولَةُ فِي الْمَجْتَمَعِ فَقَدْ انْتَشَرَ الْأَمْنُ وَحُفِظَتِ الْأَعْرَاضُ وَتَمَّتْ نَجْدَةُ الْمَلْهُوفِ وَإِغَاثَةُ الْمَنْكُوبِ... أَمَّا الَّذِي يَمْنَعُ الْإِنْسَانَ مِنْ اِكْتِسَابِ هَذِهِ الصِّفَاتِ فَهِيَ الْأَنْانِيَّةُ وَقَسْوَةُ الْقَلْبِ وَتَفْضِيلُ الرَّاحَةِ الدَّائِيَّةِ وَالْمَصْلَحَةِ الشَّخْصِيَّةِ عَلَى مِشَارَكَةِ الْآخَرِينَ أَلَا مَهْمَ وَأَمَلْهَمَ. وَمَا يُسَاعِدُ عَلَى اِكْتِسَابِهَا الْإِيمَانُ بِالْقَدْرِ عِبْرَ اسْتِشْعَارِ الْآيَةِ: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا...﴾^(٣).

وَمَا يُسَاعِدُ عَلَى اِكْتِسَابِ الْإِيمَانِ أَيْضًا مُصَاحَبَةُ ذَوِي الشَّهَامَةِ وَالتَّخَوُّةِ وَسَمَاعُ أَخْبَارِهِمْ وَقَصَصِهِمْ لِكَيْ نَقْتَدِيَ بِهِمْ.

(١) رواه البخاري في صحيحه، عن أنس بن مالك، رقم الحديث: ٣٠٤٠، كتاب: الجهاد والسير، باب: إذا فزعوا بالليل.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٥١٨٦، كتاب: النكاح، باب: الوصاة بالنساء.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٥١.

قصة من حياة النبي ﷺ: الإراشي والنخوة

قصة تثبت كم أنّ النخوة والمروءة لا تتأثران في حال قيام العداوة بين الناس، فهما من القيم الثابتة في النفوس.

إنّ "أبا جهل بن هشام" اشترى من شخصٍ يقال له "الإراشي" عدّة جمالٍ فمأطله بدفع ثمنها (وكما طالبه تهرب منه). وبعد أن نفذ صبرُ الرجل، جاء إلى نادٍ يجلس فيه زعماء قريش من الكفار فقال: "يا معشر قريش، من رجل يُعيني على "أبي الحكم بن هشام" فإنّي غريب وابن سبيل وقد غلبني على حقّي". فقالوا له: "أترى ذلك الرجل؟ (يعنون رسول الله ﷺ)، اذهب إليه فهو يُعينك عليه". (فدله كفّار قريش على النبي ﷺ لينصفه من "أبي جهل"، استهزاء برسول الله ﷺ ولعلمهم بأنّ "أبا جهل" يكرهه كثيرا وأنه يستحيل أن يُعطيه طلبه بل سيهزأ به ويؤذيه). فجاء إلى رسول الله ﷺ وذكر له حاله مع "أبي جهل"، وقال له: "يا "أبا عبد الله"، إنّ "أبا الحكم بن هشام" غلبني على حقّي لي قبله وأنا غريب وابن سبيل، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجلٍ يأخذني بحقيّ منه فأشاروا إليك فخذ حقّي منه يرحمك الله". (وكان ﷺ أشجع الناس وأكثر الناس شهامةً ومروءةً، يُغيث الملهوف ويُعين على نوائب الدهر، ويعلم مدى كره "أبي جهل" له. ولكنه لم يُبالِ وأثر نصرة الملهوف فتوكل على الله). خرج النبي ﷺ مع الرجل إلى "أبي جهل" وضرب عليه بابه، فقال: "من هذا؟" قال ﷺ: "محمد". فخرج إليه وقد اصفرّ لونه أي تغير. فقال له ﷺ: "أعط هذا حقه". قال: "نعم، نعم... لا تبرح حتى أعطيه الذي له". فأعطاه كامل حقه. فسّر الرجل وأقبل حتى وقّف على ذلك المجلس من كفّار قريش فقال: "جزاه الله خيراً" (يعني النبي ﷺ) فقد والله أخذ لي بحقيّ". فتفاجأ الجميع! وكان كفّار قريش قد أرسلوا رجلاً ممن كان معهم خلف النبي ﷺ وقالوا له: "انظر ماذا يصنع" (حتى يروي لهم كيف سيؤذي "أبو جهل" رسول الله ﷺ فيضحكوا ويهزؤا). فقالوا لذلك الرجل: "ماذا رأيت؟" قال: "رأيتُ عجباً من العجب، والله ما هو إلّا أن ضرب ﷺ عليه بابه، فخرج إليه، فقال: أعط هذا حقه. فقال: نعم، لا تبرح حتى أخرج إليه حقه، فدخل فخرج إليه بحقه فأعطاه إليه". عند ذلك، قال كفّار قريش لـ "أبي جهل": "ويلك، ما رأينا مثل ما صنعت؟" قال: "ويحكم، والله ما هو إلّا أن ضرب عليّ بابي وسمعتُ صوته فملئتُ رعباً ثم خرجتُ إليه فرأيتُ فوق رأسي فخلاً من الإبل ما رأيتُ مثله قط، فشعرتُ أنّي لو امتنعتُ أو تأخرتُ لأكلني!" (أي أراه الله تعالى ذلك فارتعب وأعطى الرجل حقه).

قصة من قصص الأنبياء: سيّدنا موسى والمرأتين

وهذا سيّدنا موسى عليه السلام لما وجد امرأتين يُريدان أن تستقيا من البرّ وعليها ازدحام من الرجال، أخذته النخوة وقام فسقى لهما (أي استخرج الماء من البرّ لهما)، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾^(١).

الإشارة: من شأن غالب النفوس ألا تقبل الخصوصية عند أحد حتى تظهر علامتها، ولذلك طالب الكفار الرسل بالمعجزات، وطالب العوام الأولياء بالكرامات، ويكفي في الولي استقامة ظاهره، وتحقيق اليقين في باطنه.

الإشارة: قال بعض الحكماء: الدنيا كنهر طالوت، لا ينجو منها إلا من لم يشرب أو اغترف غرفة بيده، فمن أخذ منها قَدَّرَ الصَّوْرَةَ كَفْتَهُ، ونَشَطَ لعبادة مولاه، ومن أخذ فوق الحاجة حُبَسَ في سجنها، وكان أسيرًا في يدها.

الإشارة: من علامة النجاح في النهايات الرجوع إلى الله في البدايات، فإذا برز المريد لجهاد أعدائه من النفس والهوى والشيطان وسائر القطّاع، واستنصر بالله وتبرأ من حوله وقوته، كان ذلك علامة على نصره وظفره بنفسه، وكان سبباً في نجاح نهايته، فيملكه الله الوجود بأسره، ويفتح عليه من خزائن حكمته. قال أبو سليمان الداراني: "إذا اعتادت النفوس على ترك الآثام، جالت في الملكوت ثم عادت إلى صاحبها بطرائف الحكم من غير أن يؤدي إليها عالم علماً".

وفي الخبر: «من عَمَلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»، وكان حينئذٍ رحمة للعباد، يدفع الله بوجوده العذاب عنهم يستحقه من عباده.

وفي الحديث القدسي: «يقول الله ﷻ: ((إِذَا كَانَ الْغَالِبُ عَلَى عَبْدِي الْإِسْتِغَالُ بِي، جَعَلْتُ هِمَّتَهُ وَلَذَّتُهُ فِي ذِكْرِي، وَرَفَعْتُ الْحِجَابَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، لَا يَنْهَو إِذَا سَهَا النَّاسُ. أُولَئِكَ كَلَامُهُمْ كَلَامُ الْأَنْبِيَاءِ، أُولَئِكَ الْأَبْطَالُ حَقًّا، أُولَئِكَ الَّذِينَ إِذَا أَرَدْتُ بِأَهْلِ الْأَرْضِ عُقُوبَةً أَوْ عَذَابًا ذَكَرْتُهُمْ فَصَرَفْتُهُ بِهِمْ عَنْهُمْ))»^(١).

في الإعجاز العلمي

في أشرار الساعة

من علامات الساعة: تكالب أم الكفر على هذه الأمة؛ ففي الحديث عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكْلَةُ إِلَى قُضْعَتِهَا» فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ كُنْتُمْ غَنَاءً كَغَنَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ». فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»^(٢).

تابوت السكينة وأشرار الساعة:

بعد انقضاء الفترة التي أقامها بنو إسرائيل في التيه - وهي (٤٠) سنة - وبعد وفاة هارون وموسى عليهما السلام، تولى أمر بني إسرائيل نبي من أنبيائهم اسمه يوشع بن نون عليه السلام فدخل بهم بلاد فلسطين، وقسم لهم الأرضين. وكان لهم تابوت «صندوق» يسمونه تابوت الميثاق أو «تابوت العهد» فيه ألواح موسى وعصاه ونحو ذلك، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: «﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾»^(٣).

وهذا التابوت سيظهر في آخر الزمان، وله علاقة بأشرار الساعة.

(١) ذكره ابن عجيبة في البحر المديد، باب: سورة البقرة، الآيات: ٢٥٠-٢٥٢، ج ١، ص ٢٨١.

(٢) رواه أبو داود في سننه، عن ثوبان، حديث رقم: ٤٢٩٧، كتاب: الملاحم، باب: في تداعي الأمم في الإسلام، الحديث حسن.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٨.

أدع بهذا الدعاء لنفسك ولكل المسلمين المجاهدين في كل مكان، وانصح به أهل الابتلاء، فالله سبحانه هو الذي يفرغ الصبر، ويثبت الأقدام، وينصر عباده على أهل الظلم والكفر والطغيان ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَبِّثْ أَفْئَامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(١).

آيات السكينة: يقول ابن القيم رحمه الله: "قَدْ جَرَّبْتُ قِرَاءَةَ هَذِهِ الْآيَاتِ عِنْدَ اضْطِرَابِ الْقَلْبِ حَتَّى يَرُدَّ عَلَيْهِ، فَرَأَيْتُ لَهَا تَأْثِيرًا عَظِيمًا فِي سُكُونِهِ وَطُمَأْنِينَتِهِ". ويقول ابن القيم أيضًا في شرح منزلة "السكينة" من منازل السالكين إلى الله: هذه المنزلة من منازل المواهب، لا من منازل المكاسب، وقد ذكر الله سبحانه السكينة في كتابه في ستة مواضع:

- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٢).
- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).
- قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾^(٤).
- قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾^(٥).
- قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أُنْزِلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾^(٦).
- قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٧).

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٨.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٦.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٤٠.
(٥) سورة الفتح، الآية: ١٨.
(٦) سورة الفتح، الآية: ٤.
(٧) سورة الفتح، الآية: ٢٦.